الوحدة 05: إسهامات المتصوفة

1- في الحياة الاجتماعية:

- تقديم العون المادي والمعنوي.
- التكافل الاجتماعي.
- التسكين من الخوف.
- قضاء الحوائج.
- التطبيب والرعاية الصحية.

اشتهر المتصوفة بتقديم العون المادي للعامة، ومنها الصدقة، فقد كان أبو العباس السبتي (ت.601هـ/1204م) رحيما عطوفا محسنا على المساكين واليتامى والارامل، يجلس حيث امكنة الجلوس في الاسواق والطرق فيحض الناس على الصدقة، ويأتي بما جاء من فضلها في الحديث والقرآن، فتنهال عليه الصدقات، ليفرقها على المساكين وينصرف الى حال سبيله، ومنهم من كان يقبل عطاء السلطان ليوزعه على الفقراء، كما هو حال ابو زكرياء الليجي (ت540هـ/1145م)، ويذكر بن الزيات أن السلطان قدم من مراكش الى اغمات وريكة فزار عبد الجليل بن ويحلان، والليجي، وبعث الى كل منهما بألف دينار، فأما الاول فقد رد العطاء الى السلطان، وأما الليجي فقد وزعها على المساكين والفقراء .

أما في وقت الشدة والمحن، فقد كان عمل المتصوفة مضاعفا، وهمهم التخفيف على المجتمع آلامهم وكربهم، ومنهم ابو زكرياء يحي التادلي (ت.576م/1180م) الذي كان في مجاعة ضربت مراكش جمع الفقراء الذين يجلسون بجامع علي بن يوسف وفرق عليهم ما كان من قمح وسمن كان عنده حتى لم يبق له منه شيئا. وحلت سنة 571هـ/1175م وفيها شدة وكربة، وكان للمذكور سلفا ابي زكرياء غرفتين من قمح، ففرق ما في الغرفة الاولى حتى اكتمل منها القمح، ولما رأى بان القمح لم يكف الناس، قال لصاحبه عبد الله بن محمد الخضري الحق

بالغرفة الثانية وفرق منها القمح على الناس كما فعلنا بالأولى. واتصف ابو عبد الله الكماد بصنعه الطعام وتفريقه على المريدين، ونفس الحال مع أبي موسى الدكالي الذي كان يحمل قفته ويذهب بها الى البحر ليسترزق، ثم يبيع ما جمع من البحر ويشتري بثمنه الخبز ويتصدق به على المساكين بعدما يأخذ ما يقتات به.

إضافة إلى أبي محمد عبد الله بن الحجاج الجزائري (ت640هـ/1242م)، الذي كان لا يتعول من مرتبه الذي كان يتقاضاه على منصب القضاء الذي كان يزاوله في مدينة الجزائر، وإنما يصرفه في الصدقات ويعتمد في معاشه على فوائد عقار ورثه عن أبيه.

ومنهم من كان يوزع الغطاء واللباس على المحتاجين، مثل اسحاق الهزرجي (ت.581هـ/1185م) الذين كان يتفقد الصبيان في مكاتبهم يسال عن الايتام والفقراء فيكسوهم، وشهد ابو زكرياء الزناتي عنه انه بلغ به الامر حتى تجريد اولاده من لباسهم والباسها للفقراء. ومنهم من كان يقدم الخدمات، فقد اشتهر بن الدلال بخدمته لأهل المحلة التي كان يسكن بها، ويسقي الماء للأرامل، ويحمل الخبز الى الفرن، ويساعد الضعفاء في قضاء حوائجهم .

لقد ورد في مصنفات التصوف اشارات كثيرة لمهمة التطبيب والمداواة التي اشتهرت عند المتصوفة، وقد اختص كل بطرقة ما، ومنها التفل كما كان يداوي بها ابي يعزى يلنور، ويذكر التادلي انه جاءه رجل فقعد فمازال يتفل عليه الى ان برئ وقاما سويا. اما ابو زكرياء الصنهاجي الاسود (ت601/1204) كان يقول: سالت ابا شعيب الغوث ان يتفل في فمي فلم ازل به الى ان فعل فكان يبرئ العلل بالتفل عليها، ومن طرق المداواة الدعاء وقد سمي ابو شعيب يحي المزبرة لسرعة اجابة دعوته، وكان الناس يتقون دعاءه لما جربوا استجابته. ويذكر البردعي أبو علي ويسنن (ت.586هـ/1190م) انه كان اعمى وسمع بابي يعزى، فلما طلبت شفائه ارسل لي رقعة من برنوسه لأحرقها واكتحل بها، فرد إلي بصري. كما ذهب الناس إلى اعتداد ضريح الأولياء، من خلال زيادة قبورهم والتبرك بها، وسؤالهم الشفاء والبركة، والتشفع بهم، وحتى الاستنجاد والاستغاثة بهم.

وكذلك لما وقع ببجاية أيضا زمن أبي الحسن الحرالي (ت638هـ/1141م) جفاف وندرة الماء، حتى أصبح الناس يذهبون إلى الواد الكبير (الصومام) للسقي، كما أرتفع زق (سعر) الماء إلى أربعة دنانير، وعجز كثير من الناس عن تحصيله، قام الحرالي بتكليف تلامذته بالعمل على توفير احتياجات الفقراء من الماء، وحين عجزوا يذكر الغبريني أنّه تضرّع إلى الله وتوجه إليه بالصلاة والدعاء، حتى نزل المطر، وسُقي الناس.

2- في الحياة السياسية:

- كوسيط بين السُلطات.
- في السفارات والمعاهدات.
- كوسيط بين العامة والسلطة.

رفض المتصوف الاقتراب من السلطة، ورأى بأن مصاحبة السلطان يؤدي إلى الانغماس في الملذات والشهوات، ويبعدهم عن جانبهم الروحاني والزهد الذي ترمي إليه الصوفية، إلا ما ندر، وقد روى ابن مريم في كتابه البستان نموذجا في ذلك على أيام السلطان الحفصي ابو فارس عبد العزيز وقد راسل الشيخ الروحاني المتصوف محمد بن عمر الهواري الوهراني (ت843هـ/1439م) بكتاب مختوم وعندما دفع به خادمه بختي الى الشيخ الهواري قال: فلما دخلت على الشيخ الهواري بكتاب السلطان قالي لي قبل ان يرى الكتاب وقبل ان أذكر السلطان ولا اخبره بشيء: يا بختي لا حاجة لنا بصحبة السلطان، وما الذي ساقنا إليه؟". لكن الحاجة إلى خدمة المجتمع ورد ظلم السلطان اجبر الكثير من المتصوفة على الولوج الى الخطط ووظائف الدولة، ومنهم من كام يكره على الوظيفة كما هو الحال مع ابو يعقوب يوسف بن علي المؤذن (ت.557هـ/1161م)، فقد اكره على منصبه كمحتسب، وكان يدخل على اهله ويبكي من شدة جزعه على توليه الوظيفة عند السلطان. وقد اعتبر الصوفية الخروج عن المنصب لا يكن الا بالتوبة والعزوف عن اعمال الدنيوية.

ورأى البعض في مهمة الوساطة جانبا ودورا منوطا بالمتصوف، فقد ساهم الصوفية في فض بعض النزاعات بين الملوك ورؤساء القبائل والدول، فهناك من مثل دور السفير للسلام والصلح، ولعب دور الوسيط لرأب الصدع والشقاق بين الطرفين، ومن ذلك الوساطة التي لعبها ابن قنفذ القسنطني في سبيل عقد الصلح بين أبي يحى أبو بكر الحفصي وبين أبي حمو صاحب تلمسان. وكذا دور أبي اسحاق التنسي توفي سنة 680هـ/1281م، الذي مثل دور المبعوث الدبلوماسي بين أبي عثمان يغمراسن والسلطان المريني أبي يعقوب.

وكانت علاقة السلطة–العامة ترهق الصوفي، فقد مثل حلقة وصل بينهما من خلال حالة الاحتقان الدوري التي حدثت بين العامة والسلطان خصوصا في حال الضعف الاقتصادي ونقص التمويل لدى السطان في الحروب من قبيل رفع الظلم كالنظام الجبائي المجحف، أو في حال الخروج عن الطاعة. ومن النماذج في هذا الصدد حالة المتصوف أبو اسحاق التنسي الذي كان وسيطا بين السلطان أبو سعيد المريني والقبائل البربرية التي أمر باستباحة ونهب أموالها حينما خرجت عن طوع دولته، وعمل في وساطته تلك على وقف أمر الاستباحة، ورده السلطان المريني عن قراره.

كما حاول المتصوفة مساعدة المجتمع من خلال التنديد بإهمال السلطة لشؤون الرعية في البعض من جوانب الحياة، والإنكار عليها بعض ألوان التعسف في حق الرعية من قبيل النظام الجبائي التعسفي المسلط عليها، حيث يقف المتصوف كوسيط مع الميل إلى صف الرعية ضد السلطة، هاته الاخيرة كانت تستجيب أحيانا لمطالب المتصوفة بإلغاء بعض الضرائب المجحفة في حق الرعية وتلبي طلباته.

3- في الحياة الدينية:

- الصوفية والفتوى.
- المتصوفة وبناء المؤسسات الدينية.
- دورهم في الاصلاح الاجتماعي.

- دورهم في محاربة التفسخ والفساد الأخلاقي.

اشتهر عدد من المتصوفة في عملية الاصلاح ومعالجة حيد المتجمع عن جادة الصواب، ففي ظل انتشار بعض مظاهر الفساد الأخلاقي، كالاختلاط الفاحش، وشرب الخمر، وممارسة الزنا واللواط والدعارة... كما عمل المتصوفة على محاربة الفساد والتفسخ الأخلاقي، كشرب الخمر وممارسة الزنا، وحاربوا اللصوصية وقطع الطريق والحرابة، وكانوا يسهرون ويدعون السلطة إلى تسليط العقوبات عليهم وتنفيذ الحدود والقصاص والزجر والوعيد. كما اعتمدوا سبيل النصيحة والتوجيه والارشاد. بالإضافة إلى هذا، عمل الصوفية على غرس العديد من الخصال الخلقية الحميدة في جسم السلوك لدى عناصر المجتمع في مسعى التربية والإصلاح الأخلاقي، وذلك من قبيل: سلوك الايثار، والإحسان، والرحمة والتطوع، والعفو والمسامحة، والصبر والمصابرة، والبذل والعطاء. ومن أبرز الأساليب الكفيلة ببلوغ ذلك هو سبيل القدوة الحسنة.

كما كان للمتصوفة دور في الاصلاح بين الناس، ومنهم ابي محمد صالح الذي بعث اليه ابو محمد عبد الغفور قوما كانوا في نزاع طويل وخصومة طال زمنها حول نازلة بينهم، فأجلسهم وسمع منهم واسمعهم، فاصلح بينهم ابو محمد صالح من ساعته، وابو محمد هذا كان من علية القوم في المغرب الاقصى، ومن ارباب الدولة حتى دخل فكر التصوف في قلبه فزهد في الدنيا وصحب عبد الغفور بن يوسف ونزل أدوز، وكان الشيخ ابو يعزى يلنور يتمنى لقائه. وضريح ابو محمد مشهور ويزار بجبل ايميسون بأغمات.

4- في الحياة الثقافية:

- التعليم النظامي للتلاميذ والطلبة بالمؤسسات
- تعليم العامة ورفع مستوياتهم العلمية والفكرية
- تأليف الكتب والرسائل في شتى المجالات العلمية.

أثرى المتصوفة الحياة الفكرية والدينية بآثارهم ومصنفاتهم في التصوف وباقي العلوم الأخرى كعلوم الدين واللغة العربية. ومنهم أبو مدين شعيب الغوث (ت594هـ/1198م) الذي ألف كتابين هما: كتاب "مفاتيح الغيب لإزالة الريب وستر العيب"، وكتاب "الجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان". كما دون في علم القراءات الكثير من المتصوفة منهم: ابراهيم بن يسول الاشبيلي، وأبي اسحاق الطيار، وأبي عبد الله الحجام. واختصر أبو العباس أحمد بن محمد المعافري (القرن 7هـ/13م) كتاب التيسير في القراءات لأبي عمرو الداني. كما اختصر أبو القاسم محمد بن فيرة الشاطبي (ت590هـ) كتاب القواعد الواردة في كتاب التيسيير في قصيدته "بحر الأماني ووجه التهاني". ووضع أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن بن ابراهيم الحرالي التجيبي (ت638هـ/1241م) كتابا في قوانين التفسير بعنوان "مفتاح الباب المقفل على فهم القرآن المنزل". وكذلك انشغل بتلمسان أبو عبد الله محمد بن مرزوق بعلوم القرآن، ووضع أبو العيش محمد بن أبي زيد عبد الرحيم الخزرجي (القرن 6هـ/12م) تفسيرا للقرآن.

كما اهتم الصوفية بالفقه باعتباره جملة القواعد والأحكام المستخرجة من الكتاب والسنة لتنظيم حياة الفرد الدينية والاجتماعية والاقتصادية، وتشريع أحواله الشخصية وكافة معاملاته في شتى فنون الحياة ومجالاتها. حيث اهتموا بتدريس كتب الفقه المالكي اعتمادا على كتاب الموطأ وغيره من كتب الفقه المالكي، وغيرهم كثير من شيوخ وفقهاء الصوفية الذين اهتموا بالفكر الصوفي والفقه وعلوم الشرع المتلونة، كمحمد بن عمر الهواري، ومحمد السنوسي، وأحمد بن ابراهيم، والشيخ أبو الحسن الزيات، وأبو تمام الواعظ الوهراني، والشيح الصالح الواعظ أبو عثمان سعيد بن زاهر الأنصاري (ت654هـ/1356م)، وأبو اسحاق التنسي العلامة المحقق محمد بن العباس (ق9هـ/15م).

كما اهتم المتصوفة بتعليم التلاميذ والطلبة، وكانت طرائق التدريس تختلف من صوفي لآخر، ومن زاوية لأخرى بحسب الشيخ أو حسب القدوة. بالاضافة إلى وضع برامج خاصة لتقديم الدروس ووقت معين لها، فهذا

أبو زكريا يحي الزواوي كان في شهر رمضان يحدد ميعادا لتعليم القرآن وتفسيره خلال اليوم، كما يقدم دروسا في العربية وبقية العلوم كالحساب. وكلما كان الدرس والمعلم حسن زاد المتعلم والتلاميذ في حلقات الدرس. كما أسهم المتصوفة في القضاء على الجهل ورفع مستويات المعرفة العلمية والدينية من خلال اشراك العامة في التعليم بالمساجد والزوايا، ومنهم أبو حامد الصغير المسيلي الذي كان مجلسه يزدحم بالعامة.

وكان الشيخ ابو مدين ينشر العلم بين تلامذته، وكان منفتحا على المريدين من كل الجهات، ودرس في مجلسه الحديث والتصوف والفقه، وكانت رسالة القشيري ضم المؤلفات التي تولى شرحها لطلبته. وفي المغرب الأقصى سجلت المصنفات عددا كبيرا من رجال التصوف مارسوا التعليم للصغار والكبار والعامة والخاصة، فمنهم من مارس تعليم الصغار ببيته مثل الشيخ ابو شعيب الصنهاجي الازموري (ت.561هـ/1165م)، وبلغ لباي علي الشريشي خمسون تلميذا، ومنهم من كان يدرس متطوعا ويتصدق بأجرته منهم على الفقراء، ومنهم ابو عبد الله التاودي الذي كان يعلم الصبيان فيأخذ ارة عن الغني دون الفقير ثم يدفع بأجرته تلك للفقراء والمساكين تصدقا، كما كان يغسل اثواب الفقراء من تلامذته في قصعة عنده، ويخيطها اذا احتاج لذلك.